«٦»

# عبدالله بن راشد القحطاني

نسبه، ثقافته - هجوم الزنْجيلي - ولاية عبدالله بن راشد - غزو ابن مهدي - مقتل السلطان ابن راشد - ضياع المصادر التاريخية - أولاد عبدالله بن راشد

## ❖ نسبه، ثقافته:

هو السلطان عبدالله بن راشد بن شجعنة بن فهد بن أحمد بن قحطان الحميري القحطاني.

ولد بتريم سنة ٥٥٣هـ، وحبب إليه العلم من صغره فحفظ القرآن الكريم وتفقه على كثير من أئمة تريم كالإمام يحيى بن سالم بافضل، والإمام أبي بكر بن أبي ماجد، والإمام فضْل بن أبي جواس، وفي سنة ٥٨٣هـ قرأ صحيح البخاري على الإمام محمد بن أبي النعمان الهجراني الفقيه المحدث، وفي سنة ٥٨٨هـ سمع الحديث من المقدسي وابن عساكر وابن أبي الصيف اليمني.

وآل راشد الذين ينتمي إليهم السلطان عبدالله بن راشد هم من بين الأسر الحضرمية البارزة التي شقت طريقها إلى الحكم في موجة من الفوضى والتناحر على السلطة والنفوذ في البلاد، فقد كانت حضرموت تموج بالفتن والاضطرابات وتعيش في جو من الخوف والرعب وسفك الدماء، إذ لا توجد سلطة محلية حازمة قوية تستطيع أن تفرض سلطانها على كافة أنحاء القطر وتبث فيه الأمن والسكينة، فظلت البلاد قروناً عديدة

تحت رحمة أصحاب المطامع من كل من هبَّ ودبّ من القبائل أصحاب العصبية مهما قل عدد أفرادها، ولم يأت تدخل حكام اليمن في السيطرة على حضرموت بأية فائدة تذكر من ناحية الاستقرار، بل زاد الحالة سوءاً على سوء، كما يعرفه كل من تتبع حوادث التاريخ الحضرمي أثناء حكم الزياديين وآل يعفر والصليحيين ومن بعدهم من بني أيوب والرسوليين وغيرهم.

### ❖ هجوم الزنجيلي:

في الوقت الذي كان فيه آل راشد يحكمون تريم كان السلطان صلاح الدين الأيوبي يُعِدُّ حملة للاستيلاء على اليمن تحت قيادة أخيه شمس الدولة توران شاه، وقد وصلت هذه الحملة فعلاً إلى اليمن واحتلتها سنة ٥٦٩هـ، فأقام توران شاه أحد قواد تلك الحملة واسمه عثمان الزنجيلي والياً على عدن من قبله، فلما وجد الزنجيلي من نفسه قوة طمع في الاستيلاء على حضرموت فجهز قوة كبيرة من اليمنيين ومن الأتراك الذين يقال لهم «الغُزّ» وسار على رأسهم إلى حضرموت.

قدم الزنجيلي أولاً إلى الشحر فاحتلها، ثم زحف بجيشه إلى الداخل فاعترضته قوة عسكرية من آل راشد عند الغيل، وعلى أثر معركة دارت هناك اضطرت القوة الحضرمية إلى التقهقر واستمر الزنجيلي في تقدمه إلى تريم ومريمه وشبام فاحتلها، وكان ذلك سنة ٥٧٥هـ أيام حكم السلطان راشد بن شجعنة والد صاحب الترجمة، وكان ممن لقي الزنجيلي إلى الشحر مع أبي الرشيد أحد أفراد أسرة ملوك شبام آل الدغّار.

وتروي بعض كتب التاريخ أن الزنجيلي عاد إلى عدن بعد أن ترك أخاه الأسود والياً على حضرموت، وجعل آل راشد نواباً عنه يبعثون إليه الخراج، ولكن آل راشد سرعان ما خلعوا طاعته وأعلنوا استقلالهم، فجهز الزنجيلي حملة أخرى لاخضاعهم قدمت إلى حضرموت ودخلت تريم

وقتلت فيها كثيراً من علمائها الذين حرضوا آل راشد على خلع الطاعة، وقد قبض الزنجيلي على عبدالله بن راشد وأخيه أحمد سنة ٥٧٥هـ وحملهما إلى عدن، ثم ألقى القبض على أبيه وأخيه شجعنة في سنة ٥٧٦هـ.

وكان الشيخان يحيى بن سالم بن أبي أكدر وأخوه أحمد من بين ضحايا هذه الحملة، وكانا عالمين فقيهين صالحين، فلما أمر بقتلهما سبق أحدهما إلى السيّاف ليؤثر أخاه بحياة ساعة، فقال له الآخر: أتسبقني إلى الجنة؟ قال: بل أردت إيثارك بالحياة، قال: لا بأس فإلى مثلها يكون السباق، ويرى السيد علوي بن طاهر الحداد في كتابه «عقود الألماس» أن الخوارج هم الذين جاءوا بالغز، وينقل عن صاحب «الجوهر الشفاف» أن الإمام يحيى بن سالم بن أبي أكدر قتل ظلماً في جمع من صالحي تريم، قتلهم بعض الخوارج خرج على البلاد سنة ٥٧٦هـ ويقول:

ذكر القاضي المؤرخ محمد بن سعود باشكيل بأن جماعة من السادة العلويين قد قتلوا أيضاً ونقله عنه الطيب بامخرمة، وذكر منهم الفقيه المقدم وغيره، وأنكر ذلك القُطب أبو بكر العيدروس العدني، وربما كان بين من قتل من العلويين من اسمه محمد بن علي فتوهم أن المراد به الفقيه المقدم. ا.هـ.

وقد عاد عبدالله بن راشد وأخوه من عدن في سنة ٥٧٦هـ، وفي بداية سنة ٥٧٧هـ اجتمع هو وأخوه شجعنة بكحلان جبل على مقربة من تريم في جنوبها تلتقي عنده مياه عِدِم وسَر[1].

ثم دخلا تريم وتولى الحكم فيها شجعنة في ذلك العام نظراً لأنه أسن من أخيه عبدالله، أما بقية المناطق الأخرى فقد ظلت هدفاً لغزو الأتراك من الغز تارة في حجر وميفع، ومرة في عمد والريدة وشبوة وجردان، وأخرى

(١) عِدِم و سَر: واديان في حضرموت الداخل.

في عندل والهجرين، يقتلون وينهبون ويفتكون بالأهالي، وكلما أخضعوا منطقة انتفضت عليهم أخرى، وظل الحال كذلك إلى القرن السابع الهجري، فتن متلاحقة آخذٌ بعضها بتلابيب بعض.

## ولاية عبدالله بن راشد:

قلنا: إن شجعنة بن راشد تولى حكم تريم سنة ٥٧٧هـ، وقد استمر سلطاناً عليها إلى سنة ٥٩٣هـ في ٧ ربيع الثاني حيث قتله أحد عبيد آل راشد فحامت التهم حول أخيه عبدالله وأشيع كذباً بأنه مدبّر هذه الحادثة، ولكنه نفى هذه التهمة بالقبض على المشتركين في قتل أخيه وقتلهم وتولى الحكم عقب ذلك، فتكون بداية سلطنته سنة ٥٩٣هـ.

وقد حاول السلطان عبدالله بن راشدمنذ تولي السلطنة أن يضرب على أيدي العابثين بالأمن، وأن يضع حداً للفتن والفوضى الضاربة أطنابها في البلاد، فقامت في سبيله صعوبات وعراقيل لم تكن لديه وسائل التغلب عليها، ومع ذلك فقد أصاب بعض النجاح، فقد قام إثر توليه السلطنة باحتلال شبام وأخرج منها راشد بن أحمد بن نعمان، وفي «عقود الألماس» للسيد علوي بن طاهر الحداد ما يشير إلى أن آل النعمان هؤلاء من الخوارج، فقد قال عن السلطان عبدالله بن راشد: وهو الذي جاهد آل النعمان ولاة شبام وألفافهم كما جاهدتهم السكون من كندة بعد زيغ كان منهم حتى أذعنوا بالطاعة وتفرق شمل الخوراج.

ومرت سنوات والسلطان عبدالله بن راشديعاني المتاعب ويقاسي المصاعب في إخضاع الثائرين وقمع الحركات العدوانية، فغزا حورة وهدم مصنعتها، وسار على رأس جماعة من أتباعه واستولى على مدينة بور، ثم قصد الساحل سنة ٥٩٩هـ فحاصر الشحر شهراً، ثم انقلب عنها دون أن يظفر بطائل، وكثرت حوادث القتل والتخريب والنهب والسلب، واستولى غير واحد من الرؤساء على شبام وانتفضت نهد وبنو حارثة وحضرموت

وتجيب وغيرهم، وحصلت حوادث قتل وتخريب في سيئون وجفل وشبام وغيرها من مدن الوادي وقراه وحوصرت تريم، وشقّ راشد بن أحمد وفهد بن عبدالله عصا الطاعة وعاثا فساداً في أراضي صوح بالقرب من تريم، وقتل الإمام سالم بن بصري أحد كبار العلويين سنة ٦٠٤هـ بعدما امتحن قبل ذلك، وعقب قتله بنحو عشرة أيام وصل راشد بن أحمد بن نعمان إلى تريم ومعه يحيى بن عبدالله بن جعفر، واجتمع أهل حضرموت وتحالفوا على السمع والطاعة لراشد - المذكور - ضمن دائرة الشريعة، وفي ذي الحجة سنة ٦٠٥هـ وقعت حادثة جفل التي هلك فيها نحو الثلاثين منهم راشد بن أحمد بن النعمان الذي انعقدت له الرئاسة إثر مقتل الإمام سالم بن بصري.

وهكذا ظلت البلاد في فوضى وخراب شامل في الأمن والنظام والعمران إلى سنة ٦٠٦هـ، حيث اجتمع بنو حارثة وبنو حرام على طاعة عبدالله بن راشدوبايعوه على السمع والطاعة علانية في جامع تريم وتخلوا له عن جميع ما في أيديهم من القرى والحصون، وخضعت له القبائل ودانت بالطاعة من العقاد غرباً إلى شعب نبي الله هود شرقاً، حتى سمي هذا الوادي وادي ابن رشد نسبة إلى السلطان عبدالله بن راشد.

عند ذلك بدأت فترة الهدوء والاستقرار في حياة هذا الوادي استتب فيها الأمن واتسق النظام ونفذت أحكام الشريعة المطهرة واطمأن الناس على أرواحهم وأموالهم وانصرفوا إلى الزراعة واستثمار الأرض والعناية بالنخيل والماشية، وكانت الأرض مستعدة خصبة لبعد عهدها بالحرث من جراء الفتن والاضطرابات فآتت الأرض أكلها وكثرت الخيرات وفاضت الزكوات حتى ذكروا أنه اجتمع لدى السلطان عبدالله من معشرات الأرض من الحبوب والتمر الشيء الكثير وقيل إنه قال ذات يوم مطمئناً إلى نتائج مجهوداته:

لا يوجد في بلدي سارق ولا حرامي ولا محتاج، فقد انصرف الناس إلى استثمار أراضيهم وشغّلت الأيدي العاملة ووصل إلى الفقراء والمحتاجين حقهم من الصدقة والزكاة فلم يبق من تدفعه الحاجة إلى أخذ قوته عن طريق القوة أو الاختلاس.

### ❖ غزو ابن مهدي:

ولم يكتف الغزّ بالفظائع التي ارتكبوها في عهد أميرهم عثمان الزنجيلي[١] فقد عادوا سنة ٦١٤هـ بقوة كبرى تحت قيادة عمر بن مهدي اليمني الذي بدأ فاحتل الشحر بعد أن نكّل بولاتها آل فارس، ثم اتجه إلى الداخل ماراً ببلدة عرف فيقاتله أهلها ويقتل منهم جماعة من أشهرهم أحمد بن سالم بن بلعان، ويستمر سائراً إلى الغيل الأسفل فيحاصر أهلها إلى أن يذعنوا، ثم يواصل سيره إلى تريم وفيها السلطان عبدالله بن راشدفيحاصرها، ثم يدخلها في ٢٣ جمادى الأولى سنة ٦١٦هـ وينفي منها السلطان عبدالله مع جماعة من أنصاره وأتباعه.

واتجه ابن مهدي بعد احتلال تريم إلى شبام فيدخلها بعد أن قاتله حكامها من بني حارثة قتالاً شديداً ثم تذعن له جميع أهالي حضرموت ودوعن سنة ٦١٧هـ، وقد حصّن مدينة شبام سنة ٦١٨هـ بأن بنى بها حصناً للدفاع وحفر خندقاً يحيط بها، ثم أعاد بناء قارة العر بالقرب من حوطة سلطانة، وسرعان ما انتقضت البلاد عليه عقب عودته إلى اليمن لمقابلة الملك المسعود[٢] بتعز، فعاد مرة أخرى إلى حضرموت ماراً بحجر فقتل

---

(١) في سنة ٥٧٦هـ نشب خلاف بين الزنجيلي في عدن وزملائه في اليمن من عمال الأيوبيين أدى إلى إثارة فتن وحروب، فأرسل صلاح الدين أخاه طغتكين لقمع دابر الفتنة فهرب الزنجيلي من عدن إلى الشام.

(٢) الملك المسعود ابن الملك الكامل أبي بكر بن أيوب، أحد ولاة اليمن من الأيوبيين الذين تولوا اليمن وحضرموت من سنة ٥٦٩هـ إلى ٦٢٢هـ.

من أهلها الجم الغفير، وكانوا قد أعلنوا العصيان كما انتقضت عليه دوعن وشبام وبنو ظبيان وبنو سعد ونهد كلها فأكثر القتل والفتك، وكان كلما اتجه إلى بقعة انتقضت عليه أخرى وماجت البلاد بالثورة والتمرد وعج الجو بالمطامع والفوضوية والفتنة تقلع الرؤوس وتحصد النفوس وتطوح بالقطر الحضرمي إلى الخراب والدمار.

واستمر الغز وقائدهم عمر بن مهدي يصولون ويجولون ويحكمون البلاد بالقوة والعنف إلى أن هجمت قبائل نهد على عمر بن مهدي في شحوح سنة ٦٢١هـ فقتلته في عدد كثير من أصحابه واستولت على شبام وتريم وجميع بلدان الوادي، وكان قتله نهاية دولة الأيوبيين ونفوذهم في البلاد الحضرمية، فقد ذكر المؤرخون أن الملك المسعود الأيوبي الذي ذهب عمر بن مهدي لمقابلته في تعز عاد إلى مصر بعد سنة ٦٢٠هـ وأناب عنه على اليمن عمر بن علي بن رسول الغساني، وكان هذا يقظاً حازما طموحاً فضبط البلاد كما ينبغي وأعلن استقلاله وتغلب على ملك اليمن، وانتقلت إلى سلطته مخاليف لحج وعدن وحضرموت وغيرها، ثم إلى خلفائه من بني رسول.

### ❖ مقتل السلطان ابن راشد :

كان آخر عهد السلطان عبدالله بن راشد بتريم عندما غادرها عقب احتلالها من قبل ابن مهدي سنة ٦١٦هـ حيث أقام بقارة العر معتزلاً شؤون السياسة؛ لما رأى من اضطراب الأحوال وعدم موالاة القبائل له وعجز أنصاره عن نصرته، وتخلّى هناك للعبادة واكتساب الخيرات والإصلاح بين الناس، ولما سئل عن السبب في اعتزاله السياسة قال: ما وجدنا أهل حضرموت يوالوننا على الحق.

ولم تطل مدة إقامته بقارة العر فقد خرج مرة ليصلح بين قبيلتين متخاصمتين فقتل في الطريق - رحمة الله عليه - سنة ٦١٦هـ أي في نفس

العام الذي أخرج فيه من تريم، وتسمي بعض كتب التواريخ قاتله ومكان قتله فتقول: قتله ابن مداره تحت طاحس ودفن قريباً من مريمه، ويرى السيد علوي بن طاهر الحداد في كتابه «عقود الألماس» أن الخوارج هم السبب في قتله، فقد قال ما نصه بالحرف الواحد: «وتحرك الخوارج في أواخر القرن السادس وأظهروا ما في صدورهم وأغروا بأهل العلم والدين وضايقوا السادة العلويين بالطعن في أنسابهم... ثم ضعف أمرهم بعد ذلك بهرب سندهم الزنجيلي الشامي وخمدت فتنتهم بعد تولي السلطان عبدالله بن راشدالشافعي السني، ثم قتل شهيداً مغيظاً بمعاندتهم حتى سلط الله عليهم طوفان القبائل النازعة من سروات جبال قضاعة فاجتاحوا البلاد وتشتت أكثر سكانها الأولون».

وفي موضع آخر من نفس الكتاب ذكر القبائل التي انتقلت إلى حضرموت من السروات[1] بعد القرن السادس قال: «هم بنو حرام وفصائلهم من بني ضنة وبني لبيد وبني مسعود وبني جعفر وبني اليماني وآل كثير وآل شماخ من مذحج والصبرات وآل جميل وآل حسن وهم بنو سعد إن لم يكن هؤلاء هم سعد كندة كما هو الأقرب وبنو خيثمة وفصائلهم مثل آل شماخ ومنهم آل جابر وآل فضالة وآل عساكر وبنو معروف وبنو ظبيان ومنهم بنو سويد بن ظبيان وبنو مرة وآل الحمراء وبنو معقل وغيرهم من القبائل المنقرضة أو الناقلة إلى الإحساء والقطيف، وكان يطلق في القديم على هذه القبائل اسم نهد لتقارب بلادهم في جبال السراة وتجاورهم، ثم امتازت كل قبيلة منهم باسم خاص، وهؤلاء غير قبائل مذحج الناقلة من سرو مذحج كآل عوبث وآل باجنادة وآل مخاشن».

### ❖ ضياع المصادر التاريخية:

ويعتقد السيد علوي بن طاهر في كتابه «عقود الألماس» أن لهذه الفتن

(١) السرو ما ارتفع عن الوادي وانحدر عن غلظ الجبل.

الدموية التي منيت بها حضرموت في ذلك العهد دخلاً كبيراً في ضياع مصادر التاريخ الحضرمي وانطماس المعلومات التاريخية عن هذه العهود فيقول:

«إن كارثة الزنجيلي والغز وما تلا ذلك من هجوم القبائل الناقلة جعل أهل الفضل يشتغلون بأنفسهم، وهم الذين يحفظون التاريخ وهرب أكثرهم إلى ظفار واليمن ومكة ومقدشوه وغيرها، ومن تأمل ذلك علم أن تلك الكوارث بالنسبة لحضرموت كواقعة التتار بأقطار الإسلام وما تلا ذلك من أعمال تيمورلنك، فلا عجب من اندراس الآثار وخفاء الأخبار».

وردد هذا المعنى مرة أخرى في موضع آخر فقال:

«وقد كان لحملات الغز والخوارج والزنجيلي وحملات قبائل جبل السراة والسروين: سرو حمير وسرو مذحج أثر عظيم في انطماس الكتب والمؤلفات، مع ما عرف به أهل حضرموت من الإضاعة والإهمال لآثار ومناقب من سبق.» ا.هـ.

ونحن حين نسجل هنا أسفنا الشديد لفقد المصادر التاريخية لأجزاء مهمة جداً من ماضي حضرموت لا نستطيع حتى الآن أن نبدي رأياً قاطعاً في الموضوع حتى تتجمع لدينا الأدلة الكافية للحكم في هذه الظاهرة الغريبة.

**أولاد عبدالله بن راشد:**

لا نعرف عن أولاد السلطان عبدالله بن راشد أكثر مما ذكره المؤرخون من أن قبائل نهد حين استولت على تريم بعد قتل ابن مهدي أخرجت أولاد عبدالله بن راشد من سجن ابن مهدي وأنهم انطلقوا إلى الشحر فسكنوها، كما أنهم ذكروا أن له ابناً اسمه محمد كان فقيهاً ووالياً على حضرموت، وتروي عنه بعض كتب التاريخ هذه الحكاية:

«سأل السلطان الفقيه محمد بن عبدالله بن راشد والي حضرموت

الشيخ القديم عبدالله بن محمد بن عبدالرحمن باعباد عن بعض شطحات الفقيه المقدم وذكر له أنه قد سأل عنها الشيخ بافضل والشيخ باطحن فأنكراه على الفقيه، فقال له القديم: أممتِحنٌ أنت أم مستفيد؟ فقال له السلطان: بل مستفيد، فقال: اشهدوا عليّ أن الفقيه المقدم محمد بن علي لا تمضي عليه ساعة وهو خال من السكر، وما قال هذا إلا في حال السكر، ولا يصلح من هذين الشيخين الاعتراض عليه مع ظهور وجه العذر».

ويذهب مؤرخ مشهور إلى أن السلطان محمد بن عبدالله بن راشد امتدت به الحياة إلى أواخر القرن السابع الهجري حيث توفى بالريدة سنة ٦٨٧هـ، وسيأتي في موضعه أن مسعود بن يماني احتل تريم وأخرج منها نهد في نفس العام الذي استولوا عليها فيه، وهكذا كانت حضرموت تتلاعب بها أمواج الاضطرابات والفتن والثورات بدون انقطاع.

وإلى دولة آل راشد القحطانيين يشير صاحب المشرع الروي بقوله:

«ثم وَلِيَ حضرموت بنو قحطان، فملكوا برهة من الزمان، ثم ظلموا الناس، وأخذوا أموالهم بالقهر والباس، فنفرت عنهم قلوب الخلق، وآل الأمر إلى آل أحمد والصبرات، وكثر في أيامهم الفرح والمسرات، إلى أن طغوا في البلاد، وأكثروا فيها الفساد، وملك كل واحد في بلاد، وجمع له العدد والأعداد، ومن قتل قتيلاً والتجأ إلى أحد منهم لم يكن الوصول إليه، فكثر بسبب ذلك القتل والقتال، والجلاد والجدال، إلى أن تولى بدر بن عبدالله الكثيري فعمل بالحيل والخداع، حتى أخذ ما معهم من الحصون والقلاع، وأخذ ملوكهم واحداً واحداً، وفرقهم في البلاد بدداً، ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً.» ا.هـ.